تاريخ الاستلام: 2019/08/16 تاريخ القبول: 2019/08/29

الدرس البلاغي والنقدي في المغرب العربي قبل العصر المريني

Rhetorical and critical research in the Maghreb before the Marinid period

د/جيلالي بوزينة محمد

د/جلول دواجي عبد القادر

جامعة الشلف

ملخص:

تجيب الورقة البحثية هذه عن جهود علماء المغرب العربي في ميداني البلاغة والنقد الذي ساد هذا الميدان وظلّ هذا الإبداع حبيسا في فترة طغت فيها الدراسات المعاصرة واستفحلت الحداثة التي ذهبت بريع كثير من الجماليات الفنية للبلاغة العربية وسط زحمة المصطلحات الحديثة التي أفسدت - بسبب فرط الاستعمال والمبالغة في كثير من الأحيان- الذوق الجمالي للغة العربية، فصرفها عن أصالتها، رغم أنّه لا يُنكَر فضل هذه الدراسات على اللغة العربية وآدابها، وفي المقابل فإنّه لا ينبغي إغفال ما يزخر به التراث النقدي والبلاغي في المشرق والمغرب على السواء، وإن كان للباحثين المشارقة فضل السبق، فإنّ للمغاربة أيضا الدور الذي يشهد لهم بالقدرة على التوليد والإبداع، وقد كان للجهود النقدية والبلاغية المغاربية قبل العصر المريني الدور اللامع في ذلك؛ فقد كان تفكيرا ناضجا لم تغب عنه أبرز القضايا النقدية والبلاغية التي أثارها أرباب البلاغة في المشرق.

الكلمات المفتاحية: البلاغة-النقد-العصر المريني- المشرق العربي-المغرب العربي-التراث

Abstract:

This research paper responds to the efforts of the Arab Maghreb Flag in the fields of rhetoric and criticism that prevailed in this field. Often - the aesthetic taste of the Arabic language, its distraction from its originality, although it is not denied the merits of these studies on the Arabic language and literature, in contrast, it should not be overlooked abundant critical and rhetorical heritage in both the Machrik and Maghrib, albeit for researchers The pre-Marinian Maghreb critique and Rhetoric had a brilliant role in this; it was a mature thought that was not lost on the most critical and rhetorical issues raised by the rhetoric elites in the Machrik

Keywords: Rhetoric - criticism - the Marinid era - the Arab East - the Maghreb - heritage

المؤلف المرسل: د. جلول دواجي عبد القادر ،**الإيميل:** dawajiaek@gmail.com

مقدمة

انصبت جهود كثير من العلماء على دراسة البلاغة العربية ودارت حولها أفكار ووجهات نظر مختلفة ومتعدّدة، التقت عليها جهود النحويين والنقاد والأدباء وعلماء الكلام وإبداعات الشعراء، وهي لم تنضج دفعة واحدة، ولكنها قطعت أشواطا ومراحل كثيرة قبل أن تستوي وتعطي ثمارها.

قبل التفصيل في جهود علماء المغرب العربي في ميداني البلاغة والنقد قبل العصر المريني لا بأس أن نتحدث عن جهود نظرائهم المشارقة في هذين العلمين بشيء من الإيجاز والتركيز:

أثمرت جهود أبي عبيدة معمر بن المثنى (209هـ) بتأليفه كتابا سماه: "مجاز القرآن" ردا على من سأله عن مخاطبة القرآن للعرب بما لم تعهده "طَلْعُهَا كأَنَّهُ رؤوسُ الشَيَاطِين"[1]، فانبرى لتوضيح مثل هذه الأمور في القرآن الكريم من خلال التعرض بالشرح والتفسير إلى ألفاظه ومعانيه، والمجاز عنده: الإيضاح والتفسير وليس قسيم الحقيقة، وتجلّت طريقته في عرضه ما في السورة من ألفاظ ثم شرها لغويا وتفسير ما ورد فيها من غريب مؤيدا ما يذهب إليه بشواهد من الشعر الفصيح. والباحث في كتاب "المجاز"هذا يقع على بعض ألوان البيان كالتشبيه والاستعارة والكناية، وبعض أبواب البديع كالإيجاز والإطناب والالتفات وغيرها.

أما جهود الجاحظ (255هـ) في الدرس البلاغي والنقدي فقد شغلت الدنيا وأعجزتها عن حصرها أو إيقاف البحث فيها على بعد عهده عنّا، حيث يرى كثير من الباحثين أنّ تاريخ البلاغة العربية يبدأ من الجاحظ الذي تعتبر مؤلفاته من المصنفات الأولى في هذا الباب، وتمثل آراؤه أصولا لهذا الباب أخذها من جاء بعده وأقاموا عليها نظرياتهم.

وتجمع البلاغة عند الجاحظ بين الجوانب النظرية والتطبيقية، خاصة في حديثه عن ألوان البيان من مجاز واستعارة وتشبيه وكناية وغيرها، ويقف أمام القضايا البلاغية موقف الأديب المحلّل ، صاحب الذوق الرفيع، فقد كان يحلل النصوص مبديا ما فيها من جمال فني بعيدا عن كثرة الاعتناء بالمصطلحات.

وأثمرت جهود المبرّد(285هـ) رسالة بعنوان "البلاغة" وهي رسالة موجزة كتبها ردّا على رسالة بعثها إليه أحمد ابن الواثق يسأله عن أيّ البلاغتين أبلغ: بلاغة المنظوم أم بلاغة المنثور؟ فأجابه فيها بقوله: **"إنّ حقَّ البلاغةِ إحاطةُ القولِ بالمعنى، واختيارُ الكلامِ، وحسنُ النظمِ حتّى تكونَ الكلمةُ مقاربةً أختَها ومعاضدة شكلَها، وأن يُقرّبَ منها البعيدُ وتُحذفَ منها الفضولُ"**[2]، إلاّ أن آراء المبرد البلاغية برزت أكثر في كتابه: "الكامل في اللغة والأدب" الذي يعدّ من أمهات كتب العربية إضافة إلى "البيان والتبيين" للجاحظ، و"الأمالي" لأبي علي القالي، و"أدب الكاتب" لابن قتيبة على حد تعبير ابن خلدون[3].

وتجتمع آراء الباحثين حول اعتبار كتاب "البديع" لابن المعتز(296هـ) من الكتب المتخصّصة في البلاغة العربية وأنّ له أهميّة بالغة في التأسيس للبلاغة العربية لأنّه يعدّ في رأيهم **"أوّلَ مظهرٍ من مظاهرِ التأسيسِ البلاغيّ ربطَ فيهِ صاحبُه دراسةَ وجوهِ البلاغةِ بجملةٍ من الضوابِطِ سيكونُ لها بدورِها أثرٌ عميقٌ في النقادِ والبلاغيينَ المتأخّرين"**[4].

وقد برز التأثير الفلسفي والمنطقي في جهود قدامة بن جعفر(337هـ) في طريقة معالجته للقضايا البلاغية التي تعرّض لها وفي طريقة تبويبها وترتيبها، ففي كتابه "نقد الشعر" تطرّق إلى الأبواب الثلاثة لعلم البلاغة، فبحث في باب البيان:التشبيه وأفاض في أقسامه وصوره، كالاستعارة والتمثيل والإرداف وذلك بالشواهد والأدلّة، كما تناول في المعاني: الإيجاز، والتتميم والإيغال، والمساواة والإشارة، وغيرها، كما تعرّض إلى فن البديع[5].

وذاعت شهرة عبد العزيز الجرجاني(366هـ): من خلال كتابه المسمى **"الوساطة بين المتنبي وخصومه"** الذي ابتغى من خلاله أن يقيم منهجا معتدلا في نقود المتنبي وشعره، معتمدا على قياس الظواهر الشعرية التي عابها خصوم المتنبي واستحسنوها في شعر غيره مقيما عليهم الحجة والبرهان وهذا ما يسمى بمنهج المقايسة.

وعرف أبو الحسن الرماني(384هـ): برسالته الموسومة: "النكت في إعجاز القرآن" التي بيّن فيها وجوه الإعجاز السبعة فقال: **"إنّ وجوهَ الإعجازِ تظهرُ من سبعِ جهاتٍ: تركُ المعارضةِ مع توافرِ الدّواعِي وشِدَّةِ الحاجةِ، والتحدّي للكافّةِ، والصّرفةِ، والبلاغةِ والأخبارِ الصّادقةِ عن الأمورِ المستقبليّة ونقضِ العادةِ وقياسِهِ بكلِّ معجزٍ"**[6]، أمّا البلاغة فقد حصرها في عشرة أقسام هي:الإيجاز، التشبيه، الاستعارة، التلاؤم، الفواصل، التجانس، التصريف، التضمين، المبالغة وحسن البيان"[7]،وغرضه في ذلك كلّه بيان مسألة الإعجاز في القرآن الكريم، وما البلاغة عنده إلاّ وسيلة لتحقيق هذه الغاية.

و يرى الرماني أن البديع أعلى درجات البلاغة، وهو حين اعتبر البلاغة أحد وجوه الإعجاز التفت إلى فكرة التميّز، تميّز الصنعة الإلهية عن الصنعة البشرية التي قسّمها إلى درجتين في الجودة، حيث يقول:**"وأمّا البلاغةُ فهي على ثلاثِ طبقاتٍ، منها ما هو أعلى طبقةً، ومنها ما هو أدنى طبقةً، ومنها ما هو في الوسائِطِ بين أعلى طبقةٍ وأدنى طبقةٍ، فما كان في أعلاها فهو معجِزٌ، وهو بلاغةُ القرآنِ"**[8]، فبلاغة القرآن عنده تأتي في الدرجة الأولى من حيث البيان والإعجاز.

وقد خلصت جهود أبي هلال العسكري(395هـ) إلى أنّ البلاغة من أحقّ وأخصّ العلوم بالتعلّم حيث يقول: **"إنّ أحقَّ العلومِ بالتعلّمِ هو علمُ البلاغةِ ومعرفةُ الفصاحةِ، والإنسانُ إذا أغفلَ علمَ البلاغةِ وأخلَّ بمعرفةِ الفصاحَةِ، لم يقع علمُه بإعجازِ القرآنِ من جهةِ ما خصَّهُ اللهُ بهِ من حسنِ التأليفِ وبراعةِ التركيبِ، وما شحنَهُ به من الإعجازِ البديعِ"**[9]، وللعسكري كتاب مشهور في هذا الباب سمّاه:"الصناعتين" (الكتابة والشعر) ضمّنه عشرة أبواب تحتوي على ثلاثة وخمسين فصلا تباينت موضوعاتها وتنوعت قضاياها، فتكلّم فيها عن البلاغة ومفاهيمها والفنون البلاغية كالتشبيه والاستعارة والكناية والمجاز والحقيقة وغيرها من تلك الفنون، كما تناول من فنون البديع الطباق والمقابلة والجناس وغيرها، إلاّ أنّه يعترف بجهود من سبقه من العلماء في البلاغة والتي كانت غايته منها الارتباط بالإعجاز القرآني.

ويجعل العسكري البديع في خمسة وثلاثين فصلا "منها" الاستعارة والمجاز والتطبيق والتجنيس والمقابلة وصحّة التقسيم...ثم يقول عنها: **"فهذه أنواع البديع التي ادعى من لا رواية له ولا دراية عنه، أنّ المحدثين ابتكروها، وأن القدماء لم يعرفوها وذلك لمّا أراد أن يفخّم أمر المحدثين لأنّ هذا النوع من الكلام إذا سلم من التكلّف وبرئ من العيوب كان في غاية الحسن ونهاية الجودة"**[10].

ويصرّ الباقلاني (ت403هـ) في جهوده على تسمية فنون البلاغة بالبديع لأنّه ينادي بأن أصناف البديع التي توصّل إليها الشعراء، بما فيها من تفرّد وتميّز لا يمكن معرفة الإعجاز القرآني بها وحدها، لأنّ نظمه متفرّد ولا يقارن بها[11].

وقد أثمرت جهود ابن سنان الخفاجي (ت466هـ) في البحث عن خصائص الإبداع والفصاحة وتعقب شروطها في الكلمة والتركيب واللفظ والمعنى كتاباً سمّاه "سرّ الفصاحة"، والذي لم يهتم فيه بالوقوف على تعريف البديع أو البلاغة بقدر ما اهتم بتحديد العناصر التي تؤدّي إلى البديع أو البلاغة والفصاحة.

وقد عرفت جهود عبد القاهر الجرجاني(471هـ)، في البلاغة العربية من خلال كتابيه: "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" وطارت شهرته من خلال اكتمال نظرية النظم عنده، والتي جعلها الأساس في قضيّة إعجاز القرآني، والعمود الفقري في حقل البلاغة العربية، ففي كتابه "دلائل الإعجاز" تناول علم المعاني، وأبرز ما عالجه فيه نظرية النظم التي ترتكز عليها موضوعات البلاغة العربية، أمّا كتابه "أسرار البلاغة" فقد تناول فيه أصول علم البيان من حقيقة ومجاز واستعارة وتشبيه، وبه عدّ مؤسّسا لعلم البيان وقد اعتمد أغلب الباحثين عليه في دراساتهم وبحوثهم البلاغية والإعجازية كالزمخشري والقزويني.

فقد ذكر الجرجاني في أسراره التجنيس وكيف يصير بديعا:**"أمّا التجنيسُ فإنّكَ لا تستحسِنُ تجانُسَ اللفظينِ إلاّ إذا كان موقعُ معنييهما من العقلِ موقعاً حميداً ، ولم يكن المرمى الجامعِ بينهما مرميً بعيداً ..."**[12] ، فالتجنيس عنده يصير بديعا إذا أعطاك الفائدة التي خدعك عنها، ويوهمك أنّه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووفّاها، فليس البديع هو التجنيس، بل العكس التجنيس قد يكون بديعا إذا كان متميّزا أصيلا، وغير بديع إذا كان تافها ركيكا[13]، وبهذا يكون الجرجاني قد وضّح شروط اعتبار التجنيس من البديع.

واعتبر الجرجاني الاستعارة من البديع كما فعل الآمدي، ولن يكون هذا البديع في رأيه إلاّ إذا كان طيّعا في طلبه المعنى ولم يسع المعنى إليه، ناداه النظم ولم يفتعل هو النظم، فيقول:" **وعلى الجملةِ فإنّكَ لا تجدُ تجنيساً مقبولاً ولا سجعاً حسناً، حتّى يكونَ المعنى هو الذي طلبَهُ واستدعاهُ، وساقَ نحوَهُ، وحتّى تجدَه لا تبتغِي به بدلاً، ولا تجدَ عنه حولاً، ومن هنا كان أحلى تجنيسٍ تسمعُهُ وأعلاه، وأحقّه بالحُسنِ وأولاهُ...**"[14]

وجاءت جهود ونظرات الزمخشري(538هـ) وآراؤه البلاغية مبثوثة في تفسيره "الكشّاف" الذي بناه على منهج يقوم على علمي المعاني والبيان، فهو يرى أن الاهتمام بالبلاغة وعلومها والتعمّق في معرفتها يكشف عن وجوه الإعجاز البلاغي في القرآن، ويوضّح غوامضه وخفايا معانيه وأسراره، والمتأمل في تفسير الكشّاف والباحث في آرائه البلاغية يكتشف مدى تأثر الزمخشري بطريقة عبد القاهر الجرجاني ومنهجه في كتابيه:"دلائل الإعجاز"و"أسرار البلاغة"، حتى قيل:"إنّ الزمخشري كان مطبقا أمينا لنظريات عبد القاهر الجرجاني ومكمّلا لعمله في مباحث البلاغة العربية ولذلك يقول عيسى علي العاكوب:"**ويعدّ الكشّاف خير مصدر لدراسة أسرار العربية وأساليبها في الحقيقة والمجاز والاستعارة والتشبيه بل يعدّ كشفا في الدرس البلاغي التطبيقي**"[15].

وقد تميّز الزمخشري بعبقرية فذّة في تذوّق الكلام ومعرفة وجوهه الجمالية كما عرف بتملّكه لناصية اللغة وإدراك أسرارها وخفاياها، وعليه يمكن القول أنّ الزمخشري لولم يكن سوى مطبقا لآراء الجرجاني والاستدلال عليها بالشواهد لكفاه ذلك إسهاما في تطوير علمي المعاني والبيان، ناهيك عن أنّ الرجل وصل التطبيق بكثير من أفكاره وآرائه التي دلّت على تعمّقه وفطنته قي تطوير الدلالات البلاغية والإلمام بخواص العبارات والأساليب وكتابه الكشاف خير شاهد على ذلك. ويبدو أن الزمخشري وعى أفكار الجرجاني وطبّقها في جهوده البلاغية.

ويجتهد أسامة بن منقذ (584هـ) في حصر الفنون البديعية فيأتي بكتابه " البديع في نقد الشعر"، حيث أوصل فنون البديع إلى مائتين وخمسة وتسعين بابا، لكنّه لم يعرّف البديع واكتفى بأن قال:"**هذا كتاب جمعت فيه ما تفرّق في كتب العلماء المتقدّمين، المصنّفة في نقد الشعر، وذكر محاسنه وعيوبه فلهم فضل الابتداع، ولي فضيلة الاتباع...**"[16].

وفي منتصف القرن السابع الهجري يؤلّف ابن الإصبع المصري 654 هـ كتابه "تحرير التحبير" الذي اختصره فيما بعد في كتاب "بديع القرآن" يحتوي مسميات للفنون متضاربة وأخرى متشابهة.

وأخذ البديع بعده في الانحدار بتنافس العلماء في إضافة مزيد من المسميات تحت فن البديع، دون أن يتوقفوا ليسألوا أنفسهم: ما البديع؟ وهل ما يصنعونه هذا يمت إلى البديع بصلة؟.

ومع ذلك يمكن القول أنّه قد أتيح للبديع من خلال هذه الجهود الفنّية من ينتبه إلى الذوق ويشيد به، وإلى حسن النظم وإلى الجمال وإلى كثرة الشواهد الأدبية المختارة التي يبرز فيها بأحلى صوره، وبأمتعها قبل أن يتقدّم به التدهور الفنّي والذوق إلى العقم، ويسلمه إلى مدرسة السكاكي[17].

وتأتي مرحلة الجمود بمجيء السكاكي 626هـ بكتابه "مفتاح العلوم" وإن كان الباحث ممّن لا يقرّ بذلك باعتبار قيمة الجهد الذي بذله الرجل في كتابه خدمة منه للبلاغة، حيث كان لابد لها بعد تطورها من خلال مرورها بمراحل وأحقاب وبلوغها أوج تطوّرها أن تبوّب وتقعّد لأن أيّ علم أو فن لابد أن يمرّ بمرحلة النشأة ثمّ يتدرّج شيئا فشيئا حتى يصل إلى مرحلة الاكتمال والنضج والبلاغة العربية ليست بدعا في العلوم فهي كغيرها سارت على هذا المنهج وسايرت نواميس الكون، ولما بلغت الأوج كان لزاما على الباحثين والدارسين أن يضعوا لها القواعد والنظريات لأن العلم لا يصان إلاّ إذا وجدت قواعده وأسسه وإلاّ ضاع وداخله الكثير من الخلل والزلل ولذلك قال فضل حسن عباس في معرض حديثه عن جهود السكاكي في البلاغة العربية: "**انّ البلاغةَ كانت بحاجةٍ إلى من يحدّدُ مصطلحاتِها تحديداً تامّاً وإلى من يفصّلُ مسائلَها وتفضيلِ بعضها على بعضٍ، وتلكَ حسنةٌ لاينبغِي أن تغفلَ، ولكنّ الكثيرينَ سامحَهُمُ اللهُ لا يذكرونَ إلاّ السلبياتِ**"[18]، وإن كان السكاكي قد بذل جهودا كبيرة لا يستهان بها في الحفاظ على البلاغة العربية وصيانتها إلاّ أن

الكثير من الدارسين لم ينصفوه ووصموه بأنّه السبب في جمود البلاغة العربية بالتقعيد لها لأنها فنٌّ وليست علما وهي تفسيرات تحتاج إلى دراسة معمّقة لأن السكاكي حاول أن يعطي البلاغة العربية ملمحها النهائي بإعطائها ثوبا لائقا بها فجمع شتاتها ورتّبها وقعّد لها وبوّبها فقسّمها إلى ثلاثة علوم:علم المعاني، علم البيان، وعلم البديع وهي جهود قيّمة تحسب له لا عليه ولولاها لضاع الكثير من أصول البلاغة العربية. وعليه فإنّ فكرة جمود البلاغة بعد السكاكي لا يمكن القبول بها لأنّ البلاغة من الفنون والعلوم المتجدّدة بتجدّد الأعصار والأمصار، ولأنها جاءت أساسا لخدمة القرآن الكريم وللكشف عن جمالياته التعبيرية والفنّية ولأنّ القرآن باق ما بقيت البشرية، متجدّد يفترّ عن كنوز ثمينة في كلّ زمان ومكان، ويؤيّد هذا ما قاله محمّد حمدي بركات: **"إنّ البلاغةَ العربيةَ من العلومِ التي لم تحترِق ولم تنضُج لأنّها أحدُ مفاتيحِ الإعجازِ القرآنيّ والجمالِ الأدبيّ...أمّا أنّها لم تنضُجْ فلأنَّ الوسائلَ التي تُعرضُ بها بحاجةٍ إلى تجديدِ ثقافة العصرِ الذي تشيعُ فيه"**[19]. وبناء على هذا لا ينبغي أن يُنكر دور السكاكي في تطور الدرس البلاغي وما أسداه من آراء وأفكار ونظرات استنارت بها دروب البلاغة العربية، فقد بلغ مكانة مرموقة لدى العلماء وصار محجة رائدة في علم البلاغة فاستنار بضوئه من جاء بعده كالقزويني(739هـ):الذي عمد إلى كتاب "المفتاح" للسكاكي فلخّص القسم الثالث منه الخاص بالبلاغة تلخيصا تميّز بالدقّة والوضوح، فجاء تلخيصا فريدا من نوعه، متميّزا عن التلخيصات الأخرى التي قام بعض العلماء الآخرين مثل بدر الدين بن مالك وغيره. ويرجع سبب تلخيص القزويني للكتاب إلى ما وقع فيه السكاكي من حشو وإطناب وتطويل واضطراب، فعمل على تنقيحه وتهذيبه وقد قال في مقدّمته:**"أمّا بعدُ: فلمّا كانَ علمُ البلاغَةِ وتوابِعها من أجلِّ العلومِ قدراً وأدقِّها سِرّا، إذ به تُعرَفُ دقائقُ العربيةِ وأسرارِها، وتكشِفُ عن وجوهِ الإعجازِ في نظمِ القرآنِ أستارِها، وكان القسمُ الثالثُ من مفتاحِ العلومِ الذي نَظَمَه الفاضلُ العلاّمةُ "أبو يعقوب السكاكي" أعظمَ ما صُنّفَ فيهِ من الكتبِ المشهورةِ نفعاً لكونِها أحسنَ ترتيباً، وأتمِّها تحريراً، وأكثرِها للأصولِ جمعاً، لكنّه كان غيرَ مصونٍ عن الحشوِ والتطويلِ والتقييدِ قابلاً للإختصارِ، مفتقراً إلى الإيضاحِ والتجريدِ: ألّفتُ مختصراً يتضمّنُ ما فيهِ من القواعدِ ويشتملُ على ما يحتاجُ إليه من الأمثلةِ والشواهدِ، ولم آلُ جُهداً في تحقيقِهِ وتهذيبِهِ ورتّبتُه أقربَ تناوُلاً من ترتيبِه...وأضفتُ إلى ذلك فوائدَ عثرتُ في بعضِ كتبِ القومِ عليها وسمّيتُه تلخيصَ المفتاحِ"**[20]، وقد تناول فيه موضوع الفصاحة والبلاغة محاولا التمييز بينهما كما تناول التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز وعلاقاته، ولم ينل البديع حظّه كما هو الحال في الأبواب الأخرى. وقد كان للتلخيص أهميّة كبيرة فقد أثنى عليه بهاء الدين السبكي بقوله:**"أما بعد فإنّ تلخيص المفتاح في علم البلاغة وتوابعها يعدّ بإجماع من وقف عليه، واتفاق من صرف العناية إليه أنفع كتاب في هذا العلم صُنّف، وأَجْمَعُ مختصرٍ فيه على حجمه أُلِّف"**[21].

والخلاصة ممّا سبق أنّها لمحة عن جهود أهم أعلام البلاغة العربية قبل العصر المريني في المشرق العربي بشيء من الإيجاز لتكون معبرا للوصول إلى الدرس نفسه عند أهمّ النقاد والبلاغيين الذين عرفهم المغرب العربي في نفس الفترة.

ثانيا: الدرس البلاغي والنقدي في المغرب العربي قبل العصر إلى غاية العصر المريني: لا يختلف مفهوم البلاغة في المغرب العربي عن مفهومه في المشرق لأنّ بلاد المغرب لم تكن في بداية الفتح قد استوت على أشدها في مجال اللغة العربية حتى تستقل وتكوّن لنفسها مفهوما خاصا في علم البلاغة العربية والنقد العربي، فقد كانت البلاغة في المغرب تعنى بسائر المباحث المتعلقة بحسن التعبير عن المقاصد ومراعاة ظروف الخطاب.

وقد ظل علماء المغرب العربي يطلقون مصطلح البديع على فنون بلاغية متنوعة لا يحددها التقسيم الثلاثي للبلاغة، لأنه ظلّ مضطربا عند المغاربة في هذه الفترة، كما كانوا يطلقون "البيان" بمعناه الواسع على البلاغة بمختلف أبوابها[22].

وقد تحدث ابن خلدون في مقدّمته عن صلة المغاربة بالبلاغة من خلال تعريفه بعمل السكاكي في مفتاحه وتصنيفه للبلاغة إلى ثلاثة علوم، فهو يرى أن المغاربة لم يؤلفوا في علم البلاغة والبيان وإنّما اختصوا بعلم البديع وعلّل ذلك بجملة من الأسباب.

وقد مرّت البلاغة العربية في بلاد المغرب العربي بثلاث مراحل:

1-مرحلة الملاحظات العابرة.

2-مرحلة التبويب والتصنيف.

3-مرحلة الازدهار وظهور المصنفات البلاغية الناضجة.

فممّا نجده في مرحلة الملاحظات العابرة والتي هي مأخوذة في الغالب عن المشارقة ما سجّله ابن عبد ربّه في العقد الفريد، وعبد الكريم النهشلي في الممتع وابن حبيب الحميري، وأبي إسحاق الحصري، وابن شهيد الاندلسي، وابن بسام الشنتريني....الخ

ومن الكتب التعليمية:

- الممتع في علم الشعر وعمله للنهشلي المتوفى 405هـ- 1014م

- تسهيل السبيل إلى تعلّم الترسيل للحميري المتوفى 486هـ- 1095م

-إحكام صنعة الكلام لعبد الغفور الكلاعي

وقد تضمنت هذه المؤلفات والشروح آراء نقدية وبلاغية هامة.

ولعلّ أقدم هذه الكتب التي تحدّثت عن البلاغة في المغرب العربي هو كتاب (العقد الفريد) لابن عبد ربه؛ وممّا ورد فيه عن البلاغة أنّها **"الإيجاز مع الجزالة والإصابة"**[23]، والملاحظ أن ابن عبد ربه(ت328هـ) لم يضف شيئا جديدا إلى البلاغة رغم نفاسة كتابه "العقد الفريد" وهو ما دعا الصاحب ابن عباد إلى أن يقول عنه تمثلا بقوله تعالى: **"هذه بضاعتنا ردّت إلينا".**

وجاء عبد الكريم النهشلي المسيلي الجزائري في أواخر القرن الرابع (405هـ/1014م) بكتابه "الممتع في علم الشعر وعمله"، ضمّنه تعليقات على بعض الصور البلاغية التي لا تخضع لدراسة أو شرح ولكنها تدل على شروح المغاربة في الالتفات إلى البلاغة لإعطائها حيّزا ضمن التأليف النقدي والبلاغي لهذا العصر.

ثم جاء ابن حبيب الحميري(ت 440هـ/1048) بكتابه "البديع في فصل الربيع"، وقد ضمّنه تعليقات على بعض النصوص بإبراز القيمة الفنية لما احتوته من تشبيهات مثل قوله في تشبيه السحاب بالخيل للرمادي (من شعراء الأندلس):

فكأنّها جيشٌ بِدُهْمِ خيولٍ غازٍ إلى جيشٍ بشُهْبِ خُيولِ

ثم جاء أبو إسحاق الحصري القيرواني (ت453هـ/1062م) بكتابه "زهر الآداب وثمر الألباب" الذي تضمّن حديثا عن البلاغة والبلغاء ولكنّه لا يعدّ دراسة وافية للبلاغة.

وتلاه ابن حزم الظاهري بكتابه "مراتب العلوم" (456هـ /1064م) ضمّنه حديثا عن غاية البلاغة وأوجه استعمالها بعد اطلاعه على كتاب أرسطو كما قال، وممّا قاله عن البلاغة: **"ما فهمه العامي كفهم الخاصيّ، وكان بلفظ يتنبه له العامي لأنه لا عهد له بنظمه..."**[24].

أما بخصوص المرحلة الثانية وهي مرحلة التطور والتركيز النسبي، فمنذ منتصف القرن الخامس الهجري أصبحت البلاغة تستحق أبوابا مفصلة عند المغاربة خاصة ما أثمرته جهود ابن رشيق المسيلي الجزائري (ت 456هـ/1065م) بكتابيه "العمدة" و"القراضة"، حيث عقد أبوابا متعدّدة لموضوعات بلاغية محضة في كتابه (العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده) وفي كتابه الآخر "قراضة الذهب في نقد أشعار العرب".

وقد جمع ابن رشيق الجزائري تعريفات عديدة للبلاغة من كتب الجاحظ والرماني وعبد الكريم النهشلي وغيرهم ثمّ عرّفها بأنها: **"وضعُ الكلامِ موضعَه من طولٍ وإيجازٍ مع حسنِ العبارةِ"**[25]، ويسعى ابن رشيق إلى التفريق بين البديع والبلاغة حيث يخصّص بابا بعنوان"المخترع والبديع"، يقول فيه:**"المخترعُ من الشعرِ هو: ما لم يُسبَقْ إليهِ قائلُه، ولا عَمِلَ أحدٌ من الشعراءِ قبلَه نظيرَه، أو ما يقربُ منه"**[26]، أما البديع: **"فضروبٌ كثيرةٌ وأنواعٌ مختلفةٌ"**[27]، وبهذا تحوّل البديع إلى باب مفتوح للاجتهاد[28]، وتكاد رواياته تكون جميعها عن علماء المشرق إلاّ أنها مشفوعة أحيانا بآرائه الشخصية .

ويبدو أنّه كان في"القراضة" مطّلعا على جهود عبد الكريم النهشلي، والكتاب كلّه يدل على الاتجاهات الأدبية والنقدية للمؤلف ويعكس صورة ذهنه وتفكيره الشخصي وتفقهه في الصناعة الشعرية[29].

وقد مهّدت جهود ابن رشيق بكتابيه "القراضة" و"العمدة"، لظهور الأبحاث البلاغية الناضجة بالمغرب، وإن كان لا ينكر فضل عبد القاهر الجرجاني على البلاغة المشرقية والمغربية بكتابيه: "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" فإنّ ابن رشيق ألّف كتابيه قبلهما فله إذنْ شيء من الفضل في ترتيب ألوان البلاغة ومحاولة استيعابها وتطبيقها رغم أن أبحاث عبد القاهر أعمق من أبحاثه.

وتستمر جهود المغاربة في القرن السادس الهجري حيث جاء ابن عبد الغفور الكلاعي بكتابه "إحكام صنعة الكلام" وهو كتاب في النقد خصّص الباب الثاني فيه لضروب الكلام وأنواع الأساليب وأقسام السجع مما يدخل في النقد والبلاغة[30].

ثم توالت المؤلفات التي تتناول البلاغة إمّا بالتآليف المفردة أو ضمن كتب أخرى نقدية في الغالب ومنها: "بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد" للقاضي عياض السبتي (ت 544هـ- 1149م)، وهو كتاب يعالج كثيرا من المسائل البلاغية متأثرا بالمشارقة ناقلا عنهم، والقاضي عياض يجعل البديع اسما جاملا لأساليب حسن التأليف من نظم وفصاحة وبيان ومحسنات ومسائل البلاغة عنده عامة، وعنده أن التشبيه أحد أنواع البلاغة وأبدع أفانين هذه الصناعة[31].

أمّا المرحلة الثالثة وهي مرحلة التأليف المحض أو مرحلة الإبداع: فقد عرفت الأبحاث البلاغية في القرن السابع والثامن والتاسع الهجرية ازدهارا كبيرا حيث ظهرت مصنفات نقدية تتضمن مباحث في البيان والبديع واستقلت أخرى بالبلاغة، وظلت مصطلحات العلوم الثلاثة: المعاني والبيان والبديع تطلق على مقاصد متقاربة فأحيانا تسمّى هذه المباحث كلّها بديعا وأحيانا أخرى بيانا؛ ففي بداية القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي ظهر بالمشرق أبو يعقوب السكاكي بكتابه (مفتاح العلوم) الذي قسّمه إلى أربعة أقسام خصّ القسم الثالث منه لعلوم البلاغة وكان فيه جامعا لأراء سابقيه من البلاغيين متأثّرا بفكرة الإعجاز وما طرحته من نظريات وقوانين وقد اعتنى بالتقسيمات والحدود أكثر مما اعتنى بالتحليل وتكاد تجمع الآراء على أنه لم يضف شيئا جديدا للبلاغة، ولذلك انكب عليه الكتاب الشراح والملخِّصون والمعلِّقون ومنهم الخطيب القزويني، البهاء السبكي، السعد التفتزاني.

وقبلهم جاء عالم مغربي عُدَّ عالما في النظم قام بتلخيص القسم الثالث من المفتاح في كتاب سماه" المصباح في علوم المعاني والبيان والبديع" وهو بدر الدين بن مالك الجياني (ت686هـ-1287م)، لكنّه لم يضف جديدا إلى الأصل أي المفتاح للسكاكي.

وألّف حازم القرطاجني (ت 684هـ-1285م) كتابه (المنهاج) وجعله في أربعة أقسام: الأول: اللفظ وأجزاؤه والأداء وطرقه، والثاني: يبحث في المعاني بالمنهج الفلسفي لا البلاغي لأنّ المعاني في رأيه حقائق موجودة في الأعيان وصور موجودة في الأذهان[32]، ويبحث الثالث في المباني وهو ما يناسب المعاني في البلاغة ويدخل في هذا القسم صناعة النظم أي الشعر، أمّا الرابع فيبحث في الأسلوب حيث يتعرض للطرق الشعرية وآخذ الشعراء في كل لون من ألوان النظم بحسب ما تقتضيه ألوان الكلم منه..

والملاحظ أنّ (المنهاج) يطبعه البحث النظري الفلسفي ويتأثر مؤلفه تأثرا مباشرا بأرسطو وآرائه في كتابي الخطابة والشعر، والجديد في الكتاب أنه يتحدّث طويلا عن نظرية أرسطو في الشعر والبلاغة حديث الناقد الفاهم ومنهجه يقوم على البحث في أصول البلاغة وأركانها والمعاني وأقسامها والألفاظ وأنواعها والعبارة وتركيبها وجوانب الحسن والقبح في القول، ومن الألوان البلاغية التي يتضمنها الكتاب: التشبيه والاستعارة والسجع والتجنيس والمقابلة.

وفي عصر حازم ظهر عالم آخر من أعلام البلاغة والنقد في الغرب الإسلامي هو أبو الطيب ابن شريف الرندي (ت684 هـ.1285م) صاحب كتاب: "الوافي في نظم القوافي"، وهو من أهم المصنّفات البلاغية والنقدية لما فيه من المباحث الجادة.

وفي القرن الثامن الهجري ألّف أبو القاسم السجلماسي كتابه "المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع"، وقد أحصى فيه عشرة أجناس تحتوي على مائة وخمسة وثمانين مصطلحا نقديا وبلاغيا كان خاضعا في تصنيفها للمنهج الفلسفي والتقسيمات المنطقية، ويُعدُّ الكتاب من المؤلفات الهامة في التراث النقدي والبلاغي في المغرب العربي.

ثالثا-اتجاهات البحث البلاغي في المغرب العربي: يمكن تصنيف المؤلفات البلاغية التي ظهرت بالمغرب العربي إلى اتجاهين اثنين:

أ-اتجاه عربي خالص ويمثله ابن رشيق – ابن الشريف الرندي – أبو القاسم الشريف– ابن أبي القاسم الثعالبي- ابن مالك الجياني، وقد تأثروا بأقوال خلف الأحمر والأصمعي الجاحظ ثم بكتب ابن سنان الخفاجي– ابن الأثير الجزري- صفي الدين الحلي.

ب-اتجاه فلسفي تأثّر أصحابه بالمقولات الفلسفية لأنّهم درسوا الفلسفة والمنطق والكلام، وطبّقوها على درس البلاغة، فمنهم من تأثر مباشرة بكتابي: "الخطابة" و"الشعر" لأرسطو وظهر ذلك جليا في التقسيمات والتفريعات وطرق التناول ومنهم: ابن حزم الظاهري(أكثر وضوحا من حازم)، حازم القرطاجني في المنهاج، السجلماسي في المنزع.

وخلاصة المقال: إن الفترة حتى العصر المريني ساد امتزاج كتب النقد بالبلاغة ومباحثها لدى نقاد المغرب العربي، فكان التباس البلاغة بالنقد الأدبي التباسا لا انفصام له حيث كان كلّ منهما يأخذ بتلابيب الآخر، كما كانت المفاهيم البلاغية عندهم أساسية في ظهور المفاهيم النقدية، وتميّز المغاربة بحضور قويٍّ في المناقشة والتفصيلات والاستمداد المباشر من كتب المنطق مستعينين به في خدمة اللغة العربية لبعث القديم من رقدته الطويلة.

وقد شهدت الفترة ما قبل العصر المريني في بلاد المغرب الإسلامي إسهامات كبيرة من العلماء المغاربة في ميدان النقد والبلاغة، ولم تكن هذه الجهود مقتصرة على هذا الجانب فحسب، بل تجاوزته إلى فروع اللغة من نحو وصرف وعروض وغيرها؛ ممّا دعا كثيرا من الدارسين إلى العناية به وبحث قضاياه، ولكنّ هذا الاهتمام ظلّ مجحفا في حقّ التراث المغاربي مقارنة مع نظيره المشرقي.

الاحالات والهوامش:

[1] الصافات، الآية: 65.

[2] البلاغة، أبو العباس المبرد، تح.رمضان عبد التواب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة 1985 ص:81.

[3] المقدمة، عبد الرحمن بن خلدون، دارالفكر للطباعة والنشر والتوزيع 2004)، ص: 460.

[4] التفكير البلاغي عند العرب:أسسه وتطوّره إلى القرن السادس(مشروع قراءة)، حمادي صمود، دار الكتاب الجديد المتّحدة، دط، دت، ص:13.

[5] نقد الشعر، قدامة بن جعفر، شرح محمّد عيسى فنون، المطبعة المليحية القاهرة، دط، 1936، ص363 وما بعدها.

[6] النكت في إعجاز القرآن، للرماني، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تح: محمّد داود خلف الله، د. زغلول سلام، دار المعارف مصر، ط.3 ، 1976، ص:16.

[7] المصدر السابق، ص: 16.

[8] المصدر نفسه، ص:69.

[9] الصناعتين: الكتابة والشعر، أبو هلال العسكري، تح:علي محمّد البجاوي، محمّد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت،2006، ص7.

[10] المصدر نفسه، ص:272.

[11] ينظر: البديع تأصيل وتجديد، منير سلطان، منشأة المعرف، الاسكندرية، دط، دت، ص:16.

[12] أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تح. محمّد محمود شاكر، مطبعة المدني، جدّة، ط1، 1412هـ، ص:4.

[13] البديع تأصيل وتجديد، منير سلطان، منشأة المعارف،الاسكندرية، دط، دت، ص: 18.

[14] أسرار البلاغة، للجرجاني، تحقيق محمّد محمود شاكر، مطبعة المدني، جدّة، ط1، 1412هـ، ص:7.

[15] الكافي في علوم البلاغة العربية، عيسى علي العاكوب، علي سعد الشتيوي، الهيئة العامة لمكتبة الاسكندرية، دط ،1993، ص:19.

[16] البديع في نقد النقد الشعر، أسامة بن منقذ، تح: أحمد بدوي، وزارة الثقافة والإرشاد، طبعة الحلبي1960م، ص8.

[17] البديع تأصيل وتجديد، منير سلطان، ص:20.

[18] البلاغة المفترى عليها بين الأصالة والتبعية، د. فضل حسن عباس، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 1999، ص:145.

[19] البلاغة عرض وتوجيه وتفسير، محمّد حمدي بركات، دار الفكر للنشر والتوزيع،عمان، الأردن،1983، ص:8.

[20] التلخيص في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، تح عبد الرحمن البرقوقي، القاهرة ط2، 1932م، ص ص 23-22.

[21] عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، بهاء الدين السبكي، مطبعة السعادة، مصر، ط.2، 1343هـ، ج1، ص:4.

[22] ينظر: نشوء البلاغة العربية وتطورها في المغرب، رضوان بن شقرون، مجلة كلية الآداب بفاس، المغرب، السنة: 1982-1983، العدد:6.

[23] العقد الفريد، أبي عمرأحمد بن مُحَمَّد بن عبد ربّه الأندلسي، شرحه وصحّحه وعنون موضوعاته، ورتّب فهارسه أحمد أمين وأحمد الزين، إبراهيم الأبياري، ج3، ط2، القاهرة، 1952، ص:467.

[24] نقلا عن نشأة البلاغة وتطوّرها في المغرب، رضوان بن شقرون، مجلة كلية الآداب بفاس، المغرب، السنة: 1982-1983، العدد:6، ص:158.

[25] العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، تح: مُحَمَّد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط5، 1981، ج1، ص:250.

[26] المصدر نفسه، ص: 262.

[27] المصدر نفسه، ص: 265.

[28] ينظر البديع تأصيل وتجديد، لمنير سلطان، ص:17.

[29] نشوء البلاغة وتطورها في المغرب، رضوان بن شقرون، ص:160.

[30] إحكام صنعة الكلام لابن عبد الغفور الكلاعي، تح. رضوان الداية، نقلا عن نشوء البلاغة وتطوّرها في المغرب، رضوان بن شقرون، ص:161.

[31] النقد المغربي القديم، نشأته وتطوّره، مُحَمَّد مرتاض، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، ص ص:187-190.

[32] منهاج البلغاء وسراج الأدباء، أبو الحسن حازم القرطاجني، تقديم وتحقيق: مُحَمَّد الحبيب بلخوجة، ط3، ص: 28.